حديث النّور فى القرآن

النور هو ضوء كلّ جرم مضيء يعين على الإبصار . وقيل إن النور لفظ موضوع فى اللغة لهذه الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على الأرض والجدران وغيرها . وقيل : النور ما به الإبصار والهدى .

والنور نوعان : نوع يحس بعين البصر ، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة كالشمس والقمر والنجوم والنيرات ، ونوع معقولٌ بعين البصيرة ، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية ، كنور العقل ، ونور القرآن المجيد ، ومن هذا النوع المعقول : المعارفُ والحقائق والدلائل التى تحلو الشك ، وتجلب اليقين فى العقائد ، وتنفى البلبلة والضلال .

والضوء أخص من النور ، ولذلك خص القرآن الشمس بالضياء ، والقمر بالنور ، فقال فى سورة يونس : « هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً والقَمَرَ نوراً » . (الآية ٥) فالشمس تشع الضياء ، والقمر يرسل النور ، لأن الشمس جرم سماوى ملتهب يضيء بذاته ، وهو مصدر الطاقات على الأرض ، ومنها الضوء والحرارة ، والقمر جرم غير مضيء بذاته ، بل يعكس أو يردُّ ما يقع عليه من ضوء الشمس ، فيبدو منيراً . ويقول القرآن أيضاً

فى سورة الفرقان : « تَبارَكَ الَّذِى جَعَلَ فى السَّماءِ بُروجاً ، وجَعَلَ فِيها سِراجاً ، وقمراً مُنيراً » (الآية ٦١) . والسراج هنا هو الشمس ، والسراج يضيء فالشمس سراج وهاج ، أما القمر فينير - كما عرفنا - بضياء الشمس المرتد من سطحه . وقد عاد القرآن فى سورة نوح يقول : « وجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ، وجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً » (الآية ١٦) .

ولقد ورد حديثُ النور فى القرآن الكريم مرات ومرات . وهناك سورة تسمى سورة النور ، وفى هذه السورة ورد قوله تبارك وتعالى : « اللهُ نورُ السَّمٰواتِ والأرْضِ مَثَلُ نُورِه كمِشْكاةٍ فيها مِصْباحٌ ، المِصْباحُ فى زُجاجَةٍ ، الزُّجاجَةُ كأنَّها كوْكبٌ دُرِّىٌّ يوقَدُ مِنْ شَجَرةٍ مُبارَكةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ ولا غَرْبِيَّةٍ ، يكادُ زَيْتُها يُضِيء ولَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ ، نُورٌ علَى نُورٍ ، يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ ، ويَضْرِبُ اللهُ الأمْثالَ للنَّاسِ ، واللهُ بِكلِّ شَىءٍ عليمٌ » (الآية ٣٥) .

ونفهم من الآية الكريمة أن « النور » من أسماء الله تعالى ، وليس المراد أن الله ذات النور ، بل المعنى هو أن الله سبحانه هادى أهل السموات والأرض ، أو هو مدبر السموات والأرض بحكمة بالغة وحجة نيرة ، فهو كالنور لهم الذى يهتدون به إلى مسالك الطرق . أو هو ناظم السموات والأرض على الترتيب الأحسن - فإنه قد يعبَّر عن النظام بالنور ، أو هو منوِّر السموات بالشمس والقمر والكواكب ، ومنوِّر الأرض بالأنبياء والعلماء ، ومنور القلوب بالدلائل والحجج ، ومنور الأبدان بآثار العبادات ، فالطاعة - كما يعبِّر القشيرى - زينة النفوس والأشباح ، والمعارف زينة القلوب والأرواح ، والله يزيد قلب المؤمن نوراً على نور ، يؤيده بنور البرهان ، ثم يؤيده بنور العرفان .

وفى قوله تعالى : « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور » وصف لزيت الشجرة المباركة بأنه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، لأن الزيت كما يعبر الرازى – إذا كان خالصاً صافياً ، ثم رؤى من بعيد ، يُرى كأن له شعاعاً ، فإذا مسته النار ازداد ضوءًا على ضوء ، كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد نوراً على نور ، وهدى على هدى ، ولذلك قال يحيى بن سلام : قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له لموافقته له ، وهو المراد من قول النبى عليه الصلاة والسلام : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

وقد علق خبراء العلم على الآية الكريمة بقولهم : الله مصدر النور فى السموات والأرض ، فهو منورهما بكل نور حسى نراه ونسير فيه ، وبكل نور معنوى ، كنور الحق والعدل ، والعلم والفضيلة ، والهدى والإيمان ، وبالشواهد والآثار التى أودعها مخلوقاته ، وبكل ما يدل على وجود الله ، ويدعو إلى الإيمان به سبحانه .

ومَثَل نوره العظيم ، وأدلته الباهرة فى الوضوح ، كمثل نور مصباح شديد التوهج ، وضع فى فجوة من حائط تساعد على تجميع نوره ووفرة إضاءته ، وقد وُضع المصباح فى قارورة صافية لامعة لمعان كوكب مشرق ، يتلألأ كالدر . ويستمد المصباح وقوده من زيت شجرة كثيرة البركات ، طيبة التربة والموقع ، هى شجرة الزيتون المغروسة فى مكان معتدل متوسط ، فلا هى شرقية فتحرم حرارة الشمس آخر النهار ، ولا هى غربية فتحرمها أول النهار ، بل هى على قمة الجبل ، أو فى فضاء الأرض ، تفيد من الشمس فى جميع أجزاء النهار ؛ يكاد زيت هذه الشجرة لشدة صفائه يضيء ، ولو لم تمسسه نار المصباح ، فهذه العوامل كلها تزيد المصباح إضاءة فوق

إضاءة ، ونوراً على نور .

ولا يجوز أن يكون النور ذاته هو الله تعالى ، وقد ضل « المانوية » حين زعموا أن الله سبحانه هو النور الأعظم ، وقد فند الرازى زعمهم بعدة أدلة ساقها ، ومنها :

أولا : إن كان النور عبارة عن الجسم كان حادثاً ، والحدوث على الله محال ، وإن كان عرضاً قائماً بالجسم ، فهو أيضاً حادث ، لأنه متى ثبت حدوث الجسم ثبت حدوث جميع الأعراض القائمة به .

ثانياً : سواء أكان النور جسماً ، أم أمراً حالا فى الجسم ، فإنه ينقسم ، وكل منقسم يفتقر فى تحققه إلى تحقق أجزائه ، والمفتقر إلى غيره لا يكون إلها .

ثالثاً : لو كان النور هو الله لوجب ألا يزول ، لامتناع الزوال على الله سبحانه .

وإذا كان القرآن قد جعل « النور » اسماً من أسماء الله تعالى ، فقد عبر عن دينه بأنه « نور » فقال فى سورة التوبة : « يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِم ويأبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ولَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ » (الآية ٣٢) أى يريد الكافرون بمزاعمهم الباطلة أن يطفئوا نور الله ، وهو الإسلام ، ولا يريد الله إلا إتمام نوره ، بإظهار دينه ونصر رسوله ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وكذلك جاء فى سورة الصف : « يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِم ، واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ ولَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ » (الآية ٨) .

وكما وصف الحق جل جلاله الإسلام بأنه نور ، وصف كتابه بأنه نور ، لأنه يجلو الشك وينير السبيل ، فقال فى سورة الشورى : « وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ، ما كُنْتَ تَدْرِى ، ما الكِتابُ ولا الإِيمانُ ، وَلكِنْ جَعَلْناهُ نوراً نَهْدِى به مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنَا » (الآية ٥٢) . فالمراد بالنور

هنا هو القرآن ، لأنه الذى تعرف به الأحكام .

ويقول الحق فى سورة المائدة : « قَدْ جاءكم مِنَ اللهِ نُورٌ وكِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِى به اللهُ مَن اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبلَ السَّلامِ ويُخْرِجُهُمْ مِن الظُّلماتِ إلَى النُّورِ بإذْنِهِ ويهدِيهِمْ إلَى صِراطٍ مستقيمٍ » (الآيتان ١٤ ، ١٥) : يروى أن المراد بالنور هو النبى ، أو الإسلام ، أو القرآن ، لأنه لولا ما جاء به الإسلام ، وما جاء به النبى من الهدى ، لما أدرك أصحاب البصيرة حق الله ، ولظلوا فى جهلهم لا يبصرون ، فالقرآن للبصيرة كالنور للبصر . والراجح أن المراد بالنور هنا هو القرآن ، وأن قوله فى الآية : « وكتاب مبين » معطوف على كلمة : « نور » عطف تفسير .

وقد ذكر النص الكريم لهذا النور ثلاث فوائد :

الأولى : يهدى به الله صاحبه إلى الطرق التى يسلم بها فى الدنيا والآخرة ، فيكون فى الدنيا مستقيماً ، وفى الآخرة سعيداً .

الثانية : الإنقاذ من ضلالات الوثنية والشرك ، إلى نور التوحيد الخالص .

الثالثة : الهداية إلى الصراط المستقيم الموصل للغاية المنشودة .

ويقول الرازى فى إيضاح أن القرآن نور ، وأن الرسول موصِّل هذا النور ، وأن البشرية محتاجة إلى نور القرآن على يد الرسول :

« الفطرة الإنسانية قد يعتريها الزيغ فى الأكثر ، وإذا كان كذلك فلابد من هادٍ مرشد ، ولا مرشد فوق كلام الله تعالى ، وفوق إرشاد الأنبياء ، فتكون منزلة آيات القرآن نوراً عند عين العقل ، بمنزلة نور الشمس عند العين الباصرة ، إذ به يتم الإبصار ، فبالحرى أن يسمى القرآن نوراً ، كما يسمى نور الشمس نورا ، فنور القرآن يشبه نور الشمس ، ونور العقل يشبه نور العين .

وبهذا يظهر معنى قوله : « فَآمِنُوا بِاللهِ ورسُولِهِ والنُّور الَّذِى أنْزلْنا » . (التغابن الآية ٨) . وقوله : « قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ من ربِّكُم وأنْزلْنا إليْكُم نوراً مُبيناً » (النساء الآية ١٧٤) .

وإذا ثبت أن بيان الرسول أقوى من نور الشمس . وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم فى النورانية من الشمس ، وكما أن الشمس فى عالم الأجسام تفيد النور لغيره ، ولا تستفيده من غيره ، فكذا نفس النبى صلى الله عليه وسلم تفيد الأنوار العقلية لسائر الأنفس البشرية ، ولا تستفيد الأنوار العقلية من شىء من الأنفس البشرية ، فلذلك وصف الله تعالى الشمس بأنها سراج ، حيث قال : « وجَعَلَ فِيها سِراجاً وقمراً مُنيراً » (الفرقان ٦١) . ووصف صلى الله عليه وسلم بأنه سراج منير» .

وإذا كان القرآن نوراً ، ويؤكد الحق جل جلاله بأن رسوله يخرج الناس بوساطة هذا القرآن من الظلمات إلى النور . فيقول فى فاتحة سورة إبراهيم : « كتابٌ أنْزلْناهُ إليْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلماتِ إلى النُّور بإذْنِ ربِّهِم إلى صِراطِ الْعزيز الحميد » (سورة إبراهيم الآية١٢) ، فإن التوراة — وهى كتاب من كتب الله - قد أخبر عنها القرآن بأنها أيضاً نور ، فقال فى سورة المائدة : « إنَّا أنْزلْنا التَّوراةَ فِيها هُدًى ونُورٌ » (الآية ٤٤) : أى أنزلنا التوراة على موسى عليه السلام ، فيها هداية إلى الحق ، وبيان منير للأحكام التى يخرج بها الإنسان من ضلال الوثنية إلى طريق النور.

والقرآن يخبر كذلك بأن الإنجيل الذى جاء إلى عيسى عليه السلام من عند ربه نور ، فيقول تعالى فى سورة المائدة : « وآتيْناهُ الإنْجيل فِيه هُدًى ونورٌ » (الآية ٤٦) : أى أعطينا عبدنا ورسولنا عيسى عليه السلام كتابنا الإنجيل ، وفيه ما يهدى من الضلال فى الاعتقاد والعمل ، وفيه نور يبصر

به طالب الحق طريقه الموصل إليه من الدلائل والأمثال ، والفصائل والأعمال .

وكتب الله كلها نور ، ولذلك يقول الحق تعالى فى سورة آل عمران : « فإنْ كذَّبوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رسلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بالبَيِّناتِ والزُّبرِ والكِتابِ المُنِيرِ » (الآية ١٨٤) . ويقول فى سورة فاطر : « وإنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهم رُسُلُهُمْ بالبيِّناتِ وبالزُّبُرِ وبالكِتابِ المُنِيرِ » . (الآية ٢٥) .

* * *

والرسول صلى الله عليه وسلم نور ، يقول عنه كتاب الله المجيد فى سورة الأحزاب : « يأَيُّها النَّبِيُّ إنَّا أرْسَلْنَاك شاهِداً ومُبَشِّراً ونَذِيراً . وَدَاعِياً إلى اللهِ بإذْنِهِ وسِرَاجاً مُنِيراً » (الآيتان ٤٥ ، ٤٦) : أى داعيًا الخلق بأمر الله إلى طريق الله ، وسراجاً يهدى بنوره الحائرين فى ظلمات الشك ، ويجىء ومعه ما ينير السبيل من النبوة والدين .

ولقد كان الرسول مشغولا فى أكثر الأحيان بالنور . يذكره ويرجوه من ربه . فكان يردد قوله : « اللهم أنت نور السموات والأرض » . وكان يقول : « كتاب الله فيه الهدى والنور » ، ويقول : « الصلاة نور » ، ويدعو ربه قائلا : « أسألك أن تنوِّر بكتابك بصرى » . وكان يحب أن يحيط به النور من كل جهة ، فهو يدعو خالقه راجيًا بقوله : « اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وفوقى نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ، واجعل لى نوراً » .

النور . . . النور . . النور : النور فى الحس ، والنور فى النفس ، والنور

فى القلب ، والنور فى الروح ، والنور فى السمع والبصر ، وعن اليمين واليسار ، ومن فوق ومن تحت ، ومن أمام ومن خلف . . النور حيثما كان ، وكيفما كان ، وفى كل مكان . ولا عجب فهو نبى النور.

وإذا كان الحق تبارك وتعالى هو مصدر النور ، وهو نور السموات والأرض ، وهو مفيض النور على حبيبه وصفيه محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فقد أفاض على أمة الإيمان واليقين ما أفاض من نور محسوس ونور معقول ، فقال عز من قائل فى سورة البقرة : « اللهُ وليُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِن الظُّلُماتِ إلَى النُّورِ ، والَّذِينَ كَفَرُوا أوْلِياؤهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلَى الظُّلماتِ أُولئِكَ أصْحابُ النَّارِ هُمْ فيها خَالِدُون » (الآية ٢٥٧) إن الله هو متولى شئون المؤمنين وناصرهم ، يخرجهم من ظلمات الشك والحيرة ، إلى نور الحق والاطمئنان ، والكافرون بالله تعالى تستولى عليهم الشياطين ودعاة الشر والضلال ، فهم يخرجونهم من نور الإيمان الذى فُطروا عليه ، والذى وضح بالأدلة والآيات ، إلى ظلمات الكفر والفساد .

والله تبارك وتعالى يعد عباده المؤمنين لقبول الحق والرشاد ، ولا سلطان لأحد على اعتقاد المؤمن إلا الله سبحانه ، ومتى كان الإنسان كذلك ، فإنه بحسن استعمال الهدايات التى وهبها الله له فى عقله وحواسه وتدبره ، وكلما عرضت للمؤمن شبهة جابهها بأشعة من نور الحق ، فتقضى على تلك الشبهة ، فإذا هو على صراط مستقيم .

وأما الكافرون فإنهم يخضعون للباطل ، ويستجيبون للطاغوت ، وهو كل ما يسوق إلى الطغيان والكفران ، وهو يجذب أتباعه من النور إلى الظلمات والضلالات ، والشبهات والشهوات ، ولذلك يكون مصيرهم النار . يخلَّدون فيها ، وبئس المصير .

وقد أجمع المفسرون على أن المراد فى هذه الآية من الظلمات والنور هما الكفر والإيمان .

ويأتى الصوفية ليدلوا بدلوهم فى الحديث عن الظلمات والنور فى هذه الآية ، فنجد القشيرى فى « لطائف الإشارات » يورد هذه الكلمات :

« يخرجهم من الظلمات إلى النور : يعنى بحكمه الأزلى صانهم عن الظلمات التى هى الضلال والبدع ، لأنهم ما كانوا فى الضلال قط فى سابق علمه .

ويقال : يخرجهم من ظلمات تدبيرهم إلى سعة شهود تقديره .

ويقال : يخرجهم من ظلماتهم بأن يرفع عنهم ظلَّ أنفسهم ، ويدخلهم فى ظل عنايته .

ويقال : يخلصهم عن حسبان النجاة بهم .

ويقال : يحول بينهم وبين الاعتماد على أعمالهم ، والاستناد إلى أحوالهم » .

ويتعرض القشيرى لتفسير قول الله تعالى فى فاتحة سورة إبراهيم : « الر ، كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » ، فيورد أمرين من معانى الظلمات والنور فى النص الكريم : فالقرآن قد أنزله الله سبحانه ليخرج به الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات الشك إلى نور اليقين ، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير ، ومن ظلمات الابتداع إلى نور الاتباع ، ومن ظلمات دعاوى النفس إلى نور معارف القلب . . إلخ .

ولقد حكى الرازى المفسر عن أبى بن كعب أنه قال : « المؤمن بين أربع خلال : إن أُعطى شكر ، وإن ابتلى صبر ، وإن قال صدق ، وإن

حكم عدل ؛ فهو فى سائر الناس كالرجل الحى الذى يمشى بين الأموات ، ويتقلب فى خمس من النور : كلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله (سره) نور ، ومخرجه (علانيته) نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة » .

ومن أين للإنسان بالنور إلا من مصدر واحد ، هو ربه نور السموات والأرض ، ولذلك يقول فى سورة النور : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » : من لم يوفقه الله لنور الإيمان ، فليس له نور يهديه إلى الخير ويدله على الطريق المستقيم .

ليتنا ندعو مع الرازى ، واقفين بباب خالقنا وبارئنا ، مستبصرين فى رحابه بنوره الذى صلح به أمر الدنيا والآخرة ، قائلين فى إخلاص وإخبات :

يا مدبر الأمور ، ويا مدهر الدهور ، ويا معطى كل خير وسرور ، ويا دافع البلايا والشرور ، أوصلنا إلى منازل النور فى ظلمات القبور ، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين . اللهم آمين .

obeikandl.com